الثـــــورات

بقلم الاستاذ ميناس خورى المحامى

الثورات هى انفجار ينبعث عند غليان النفوس وعجزها عن احتمال ما هى فيه من ضغط وعسف وإرهاق ، وهى تنشأ عادة عند ما يحس الشعب بظلم يفدحه ، وعندئذ يرتفع من بين الصفوف صوت زعيم قوى يصور الحالة للناس بأقبح صورها ، ويتوقع أوخم العواقب ، فاذا أفلح هذا الزعيم فى إقناع الأمة برأيه واستطاع أن يتحكم فى عواطفها ويدفعها إلى التضحية والاستشهاد فى سبيل انتصار عقيدتها فقد دفعها إلى الثورة .

وتبدأ الثورات غالباً فى صدور الخاصة المثقفة ، ثم تستمد قوتها بعد ذلك من الشعب ، بعد إثارة عواطفه ، وهـذا ما حدث فى فرنسا ، فقد كانت كتابة فولتير وروسو ومنتسكيو هى الجذوة الأولى التى أوقدت نار الثورة ، فلا بدع إذا ما سمى هؤلاء الفلاسفة بخالق الثورة الفرنسية .

والثورات أنواع متعددة ترجع إلى أسباب مختلفة ، فهناك الثورات السلمية الهادئة ، وهناك الثورات الدامية العاصفة ، وقد ترجع أسباب الثورات إلى عقائد سياسية ، أو إصلاحات اجتماعية ، أو مظالم اقتصادية ، أو مساوىء أدبية ، أو كل هذه القبائح مجتمعة مما يستثير العاطفة ويتحكم فى العقل ، فيدفع الناس إلى الخروج على القانون ، وتحطيم القيود التى تحد من حرية الشعوب ، أو سلطانها .

وقديماً كانت الثورات ترجع إلى عدم المساواة والحرمان من حقوق يتمتع بها بعض الأفراد دون غيرهم بغير حق ، أما الآن فقد تعددت أسباب الثورات وتغيرت مظاهرها ، فهناك ثورات علمية حطمت قيود الفكر وحررته من عقال الجهل ، كتلك الثورة التى أقامها الأستاذ (إميل دى سانت أوبان) دفاعاً عن «العقيدة الحرة» ، وهناك ثورات دينية حررت الأديان مما يعلق بها من الخرافات ، كثورة البروتستانت على المذهب الكاثوليكى ، وهناك ثورات سياسية تنشأ عند انتشار الاستياء فى نفوس الشعب من أعمال الحكومة القائمة ، كثورة البرلمان الانجليزى على شارل الأول التى أدت إلى قتله ، وهناك ثورات اقتصادية ، كثورة روسيا البلشفية التى انتهت بإلغاء الملكية الفردية ، وهناك ثورات اجتماعية ، كثورة سيدات نيوزيلنده احتجاجاً على ضريبة الزواج .

والثورات لا عقل لها يعصمها عن الانزلاق فى درك التهور ، فهى لا تعرف التسامح والاعتدال ، لأن الثائرين يعتبرون عقيدتهم حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل ، ولذلك فإن كل ناقم

على الثورة يعتبر خائناً مهما كان مخلصاً لوطنه ؛ وقد بلغ الأمر بروبسبير الثائر الفرنسي أن اعتبر كل من يخالف مذهبه السياسي خائناً يستحق العقاب ؛ وتحقيقاً لهذا الغرض ، فقد أصدر قانون المشبوهين الذي يبيح للحكومة حبس كل من يشتبه في أفكاره السياسية ، فلما ضاقت السجون بهؤلاء الأبرياء،رأى روبسبير أن يقيم « محكمة الثورة » لمحاكمة المسجونين بسرعة ، فكانت تستدعيهم زرافات وتحكم عليهم بالإعدام بدون محاكمة ، اللهم إلا التفوه بأسمائهم ؛ ولم يقف شذوذ الثورة الفرنسية عند هذا الحد، بل قام فيها رجل يدعى (هبرت) نادى بوجوب احتقار الدين الكاثوليكي ؛ لأنه دين الأشراف ، وأفلح هذا الشخص في إغلاق جميع الكنائس الكاثوليكية ، ولم يكتف بهذا ، وإنما أراد أن يخترع ديناً جديداً فأوجد « دين العقل » ، وقام هذا الدين الجديد بين مظاهر الحفاوة والترحيب به والاعتداء الأثيم على الكنائس والقساوسة؛فلما أسرف رجال الثورة في تحقير الكنائس ضج الناس ، وحاولوا أن ينتقضوا على الثورة،فلم يجد روبسبير بداً من أن يصطنع ديناً جديداً يقول بوجود إله واحد فقط ! ! هذا هو الدين الجديد ! ! الذي جعل كاهنه الأكبر روبسبير أكبر سفاح ومجرم في التاريخ .

وأكثر الثورات تبدو في مظهر نبيل وغاية شريفة في أول أمرها ، ثم لا تلبث أن تصبح أداة دنيئة لإشباع الشهوات والسعي وراء السلطان؛وقد قال نابوليون « ليس الحقد إلا سبباً للثورة الفرنسية ، وما السعي للحرية إلا حجة باطلة » ؛ والسبب في ذلك يرجع إلى أن جمهور الثائرين يكون عادة من الشباب المتحمسين والعمال العاطلين،ومثل هؤلاء الأشخاص لا يحسنون التفكير الهادىء المنتج ، بل كثيراً ما يندفعون اندفاعاً خطيراً يخرجهم من حظيرة العقل والعدل والواجب إلى ميدان الجريمة والشذوذ ، وفي هذا الجو المكهرب يموت صوت الضمير وتبدو الرجولة في أحقر مظاهرها ، وتزيد الدسائس ، وتصبح بضاعة رخيصة ، وتتخذ من الثائرين وقوداً يلهب النفوس ويدفعها إلى سفك الدماء ؛ ولقد يحدث أن ينتصر الثائرون انتصاراً غير منتظر ، فيشملون بنشوة الفوز ، ويفقدون كياسة التصرف،وتتحرك في نفوسهم أحقر شهواتها ، فلا يتعففون عن ارتكاب أفذر الجرائم ؛ فقد حدث أن لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، رأى الثائرين يحدقون بقصره ، وكان في مقدوره أن يشتت شملهم ، ولكنه أراد أن لا يراق من أجله دم أي رجل فرنسي ، فآثر أن يلتجىء إلى الجمعية الوطنية التي وعدته بحمايته ، ولكنها بدلا من ان تفعل ذلك تناست وعدها وانقادت لرأي الرعاع،وأعدمت الملك المسكين ، مع أنها كانت تستطيع حمايته.

والزعماء وإن كانوا دعامة الثورات والمعبود الذي يقدسه الثائرون ويتلقون آراءه وحياً

مقدساً يؤمنون به إلا أنهم عرضة لفقد نفوذهم، لأن الجماعات سريعة التأثر والانفعال والتقلب، فقد تحطم اليوم من عبدته بالأمس، كما حدث لأمين بك الرافعي في مصر، وكما حدث (لدانتون زعيم الثورة الفرنسية الذي قتل ما يربو على مائتي ألف شخص، ولما أفاق ضميره ورأى أنه أسرف في قتل الأبرياء وسفك الدماء أراد أن يقلل من هذا الطوفان الجارف، ولكن الرعاع المتعطشين لسفك الدماء لم يروا في اعتدال (دانتون) إلا مظهراً للخيانة العظمى التي تستحق القتل . . فقتلوه .

والواقع أن الثورات الفكرية المعتدلة لها فوائد عدة، لأن ثبات الحياة على وتيرة واحدة يدعو إلى التقهقر والاضمحلال، فالثورات تنبه الرأي العام إلى الخطر المحيق به، فيقوم بالإصلاح فريق من المصلحين الذين أوتوا الذكاء والرغبة في العمل المجدي، وبذلك ينقذون البلاد مما أصابها قبل أن يستفحل الشر، فتذهب البلاد ضحية الثورات الجارفة التي تجتاحها وتهدم كل نظمها وتستنفد قوتها، وقد تقضي عليها في حرب أهلية طاحنة . ؟

[السنبلاوين] ميناس خوري الخامي

مناجاة قلب يائس

فؤادي خلّ الأسى ناحيه وباعده عنك ولو ثانيه
فمن حادثات الصروف ترا ني على شفا هاوية هاويه
ومن ضيق نفسي ترائي البئ س أجرجر أثوابي الباليه
فيا رحمة للإله الرحي م إليّ ابعث جرعة شافيه
فعيشي وإن رق فهو الجحي م ونفسي وإن ضحكت باكيه

عبد العزيز علي حفاجي